مجلة اللغة العربية وآدابها علمية محكمة
السنة ١٢، العدد ١، ربيع ١٤٣٧ هـ
صفحة ١٤٣- ١٧٠

Print ISSN:1735-9767
ine ISSN:6187-2423
jal-lq.ut.ac.ir

جمالية «التمييز المحول» استناداً إلى القرآن الكريم ونهج البلاغة (دراسة نحوية- دلالية)

قاسم مختاري[١*]، مطهرة فرجي[٢]

١. أستاذ مشارك، قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة أراك
٢. طالبة دكتوراه، قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة أراك

(تاريخ الاستلام: ٢٠١٦/٤/١٢ ؛ تاريخ القبول: ٢٠١٦/٦/٥)

الملخّص

لقد يتحدث الدارسون عن إمكانية العدول عن الصور الأصلية في استعمال اللغة لاعتبارات يقتضيها السياق وهذا ما اهتمت به معظم الدراسات الأسلوبية الحديثة والتي سميت بظاهرة الانزياح. الانزياح في النّص الأدبي يمثل في الواقع، خروجا عن الأصل ومخالفة للقاعدة تصرفا في الفصاحة وتفننا في العبارة وهو قضية أساسية في تشكيل جماليات الإنتاجات الأدبية. هذا البحث دراسة وصفية- تطبيقية لإثبات ما ندّعيه وهو أن نقل التمييز يعتبر نوعاً من العدول والانزياح لما فيه من التنويعات اللغوية وتقنيات التعبير؛ والغرض منه خلق قيم جمالية وأن الانزياح في ظاهرة نقل التمييز يمكن حمله نوعا من الانزياح التركيبي أو نوعا من الانزياح الدلالي. يعالج هذا البحث ظاهرة نقل التمييز ويتطرق إلى نماذج تطبيقية في توظيف هذه الظاهرة الأسلوبية في القرآن الكريم ونهج البلاغة. في الحقيقة أن هذا البحث محاولة في فقه النحو والكشف عن تأثير البنية الشكلية على المعني؛ فهو إذن يدور على المعنى أساساً وبناءً. من المؤكد أن كل تغيير في أركان الكلام، يستلزمه معنى جديد؛ فالمعنى له أثر هام في خلق العلاقات بين المفردات. طبقا للبحث، إن نقل التمييز يفيد غالباً الإغراق وأيضاً الشمولية والمبالغة والتكثير وهذا ما تمكنها أسلوبية الانزياح التي تتماثل بشكل ناضج في القرآن والنصّ العلوي. فكلاهما بلغا الغاية في الكشف عن أسرار اللغة العربية الثرية وتوظيف الطاقة التعبيرية الكامنة فيها بواسطة العدول عن الأسلوب البياني المألوف والوقوف على ما لهذه اللغة الشريفة من خصائص تميزت بها على سائر اللغات.

الكلمات الرئيسة

القرآن الكريم، نهج البلاغة، الانزياح، التمييز المحول.

---

* الكاتب المسؤول
Email: q-mokhtari@araku.ac.ir

Archive of SID
www.SID.ir

مقدمة

إن معظم كتب النحو يتناول القواعد النحوية نظراً إلى الهيكل البنيوي ويبحث عن أحوال التراكيب والمباني النحوية نفسها فعنى النحويون بهذه القواعد في مستواها العادي؛ فهم عادة يحرصون على التطبيق الصحيح للقواعد اللغوية وأيضا تبريرها إعتمادا على التركيب وبنية الكلام ولكنّ البلاغيين أمعنوا في هذه القواعد ودرسوها من ناحية الداراسات التي نسميها اليوم بالاسلوبية مما جعلت الدلالة المعنوية محورا وأساسا في النحو. انهم قد تطرقوا لدراسة التراكيب النحوية وما تضمنتها من أوجه الدلالات والمعاني البديعية فبذلك تفوّقت الكتب البلاغية وفي رأسها دلائل الاعجاز لعبدالقاهر الجرجاني على الكتب النحوية في تسليط الأضواء على معالم هذه الظواهر اللغوية والكشف عن أسرارها. «فإذا كان النحاة واللغويون قد أقاموا مباحثهم على رعاية الأداء المثالي، فإن البلاغيين ساروا في اتجاه آخر من حيث أقاموا مباحثهم على أساس انتهاك هذه المثالية والعدول عنها في الأداء الفني. وليس معنى هذا، إنكار البلاغيين للمستوى المثالي الذي أقامه النحاة واللغويون، بل إن ذلك يؤكد إدراكهم لتحققه بحيث جعلوه الخلفية الوهمية وراء الصياغة الفنية والتي يمكن أن يقيسوا إليها عملية العدول في هذه الصياغة» (عبد المطلب، ١٩٩٣: ٢٦٨).

فحقاً أن معاني النحو، هي البناء الأساسي للمعاني البلاغية و«أن القواعد النحوية وسيلة من وسائل اكتناز المعاني ومظهرا من مظاهر البراعة، ومقياسا يهتدى به إلى جودة النظم والأسلوب، وسبيلا يتسابق فيه الشعراء للوصول إلى غاية البيان التي ليس وراءها لذي رغبةٍ مسرح» (عبدالمعطي، ٢٠١٢: ٥). هذا ما يؤكد عليه الجرجاني الذي أبدع نظريته المسماة بنظرية النظم. ففي ضوء هذه النظرية يمكن أن نقول إن لكل جملة ولكل تعبير معنى خاص دون غيره. ونقول إن المعنى هو الذي يجعل الجملة خاضعة لترتيب معين لا تتحقق الفائدة المعنوية بدونه. هذا بمعنى أن الجمل والعبارات ترتبط فيما بينها بعلاقات هي علاقات النحو، فتوضع كل كلمة في المكان الذي يتطلبها وفي السياق الذي يقتضيها؛ لينتج عن هذا التعلق تفجر المعاني والدلالات البلاغية الخفية، وهي ما يعرف بالمعاني الثواني، وهذا هو المقصود بالنظم.

فأثر النظم في إبراز جماليات العمل الأدبي شعراً ونثراً حقيقة لا شك فيها. فهنا يتبادر إلى الذهن سؤال وهو أن الجمالية في أي تركيب نحوي ستقع؟ أفي التراكيب النحوية

Archive of SID

www.SID.ir

والتعابير البيانية المألوفة أم لا؟ فالحقيقة أن في بعض الأحيان الانتهاك اللغوي أو الخروج عن النظام اللغوي الذي حدده اللغويون هو الذي يسبب الجمالية في السياق الأدبي. فجدير بالذكر أنه ليست ظاهرة العدول، الخروج عن المستوى المألوف فحسب بل إنها تحتوي ملامح أسلوبية ودلالات ثانوية. هذا الخرق لقانون اللغة يجب أن يكون تحريفا جماليا غايته الاثارة والتأثير. فالمخالفة وحدها لا تكتفي لتوليد النص الأدبي الممتاز فلا بد أن تكملها قيم فنية وجمالية وتختفي وراءها أسرار بلاغية متعددة. فهذا الخروج أو العدول يقوم على أساس الفائدة وأمن اللبس والحفاظ على عنصر الإبانة والافصاح ولكن انتهاك القواعد اللغوية إلى حد تضيع معه الفائدة، يصبح نوعا من الغموض والفوضى الكلامية.

يمكننا أن نقول إن استخدام التمييز كظاهرة لغوية إذا كانت غير منقول لا تعدّ الانزياح بما في الكلمة من المعنى الدقيق ولكن نقل التمييز من العناصر النحوية الأخرى فبإمكاننا أن ندخله في هذا المصطلح إذ يواجه القارئ بالتنوع والتجدّد في استعمال اللغة. فقد اعتاد القارئ على النمط البياني الثابت وهو الفعل والفاعل والمفعول فهذا الترتيب صار مرجعا يقاس إليه كل خرق فنقل كل من العناصر المذكورة من مكانها إلى التمييز وبيان «قد شغفها حباً» بدلا من «قد شغفها حبُه»، يلفت إنتباه المخاطب ويثير الانفعالات في قلبه.

فمن المقرر أن هذا التخطي للتراكيب الغوية المنطقية تكمن خلفها المعانى اللطيفة المبدعة. فهو يحدث لدواع أدبية وذوقية ونفسية، ولإحداث تأثير معين فيصير (أسلوباً أدبياً) ذا تأثير. هذا يدل على أن لكل صيغة دلالة تختلف عن أختها قليلا أو كثيراً وأيضا على أن «إختلاف المباني دليل على اختلاف المعاني» وأن جواز أكثر من وجه تعبيري ليس معناه أن هذه الأوجه ذات دلالة معنوية واحدة إذ كل عدول من تعبير إلى تعبير لابد أن يصحبه عدول من معنى إلى معنى. هذا ما لا تؤدي حقه الدراسات اللغوية وما يؤكد عليه الدكتور فاضل صالح السامرايي في كتابه القيم «معاني النحو» حين يقول: «إن تأليف أيّ كتاب في النحو أيسر من موضوع هذا الكتاب بكثير وذلك لأن الأحكام النحوية مذكورة مبينة في كتب النحو لا تكلفك إلا إستخراجها وجمعها في كتاب واحد أما هذا الموضوع فليس الأمر فيه أمر جمع أحكام نحوية ولا ذكر قواعد مبينة وإنما هو تفسير للجملة العربية وتبيين لمعاني التراكيب المختلفة مما لا تجلو أغلبه في كتب النحو وقد تفزع إلى كتب البلاغة والتفسير وغيرها من المظان فلا تجد شيئا مما تريد» (السامرايي، ١٤٢٠، ج١: ٩). هذا البحث كما قيل، يتناول الجانب النحوي والدلالي في التمييز متأملا ايحاءاته الدلالية وأبعاده الثانوية على ضوء

Archive of SID

www.SID.ir

نظرية العدول أو ما اصطلح عليه في الدراسات الاسلوبية الحديثة «الانزياح» نظراً إلى النص الشريف والعبارات العلوية. فالبحث يدور حول أسئلة نعرضها فيما يلي.

أسئلة البحث:

هذا البحث محاولة للإجابة عن هذه الاسئلة:

١. ما هو مفهوم الانزياح؟
٢. لماذا تمثل ظاهرة نقل التمييز نوعا من الانزياح أي كيف يكون نقل التمييز إنزياحا؟
٣. مِن أيٍّ نوع من أنواع الإنزياح يعتبر نقل التمييز؟
٤. ما هو أثر هذا النقل والعدول عن النمط البياني الثابت في المضمون أي هل يرافق نقل العناصر النحوية مما استعملت فيه إلى إستعمال آخر وهو التمييز معنى جديدا مفارقا لما قبله؟

خلفية البحث:

لقد حظيت هذه الظاهرة اللغوية بالعديد من الدراسات والملاحظات النحوية الوافية. فقد تناولها النحاة كثيرا في الكتب النحوية ولكنهم ما تناولوا جوانبها الدلالية. الدراسات التي تعرضت لهذه الظاهرة قيمة ولكن قليلة وغير كافية منها مقال: «دور حرف جر «في» في صياغة بعض تراكيب تمييز النسبة («في» بمعنى «من ناحية ومن حيث») الذي يشير إلى المعاني المختلفة لحرف جر «في» التي وردت في المصادر القديمة والحديثة ثم قام بدراسة التمييز وأنواعه وأقسامه وجعلها أساسا لإثبات مدّعاه في وجود معنى تركيبي جديد لحرف جر «في». فهذه الظاهرة لم تنل حقها من الاهتمام في الدراسات الدلالية والدراسات الأسلوبية. إنها تجدر بالبحث والنظر بما فيه من مظاهر العدول والانزياح عما هو متداول ومعروف في استعمال اللغة. يمتاز هذا البحث بخصوصية لم يزاولها أحد من الباحثين على حد معلومات الكاتب فيعرّف نقل التمييز نموذجا من الانزياح والعدول عن الأساليب التعبيرية المألوفة ويحاول قدر الإمكان أن يكشف عن الاضاءات الدلالية لنقل التمييز ودوره في إلقاء المعنى المطلوب فمن هذا يكون مغايرا لما أُلّف إلى حد ما.

فرضيات البحث:

تقوم دراستنا هذه على أساس فرضيات منها:

Archive of SID

www.SID.ir

١. الانزياح مصطلح أسلوبي بمعنى الخروج عن الاصل والقاعدة أي الانحراف عما هو مألوف وشائع الاستعمال؛ لكن لايدخل أي خروج عن الأصل في مفهوم الانزياح إلا إذا كان له قيمة جمالية وتأثير في المخاطب وأحاسيسه ومشاعره.

٢. نقل التمييز من العناصر النحوية الأخرى داخلٌ في مفهوم الانزياح بالنظر إلى ما قيل حول مفهوم الانزياح وما فيه من الدلالة على الابتعاد عن النظام اللغوي والنمط البياني المألوف؛ إذ نجد فيه عدولا عن المألوف من الكلام ولوناً فنياً من ألوان التعبير.

٣. نقل التمييز كظاهرة أسلوبية يعد نموذجاً من الانزياح التركيبي الذي تجسد في علم المعاني؛ إذ أن للغة العربية بنية نحوية عامة ومطردة فنقل كل من العناصر الموجودة في الجملة من مكانها إلى التمييز يعطي المخاطب أبعادا لغوية غير تلك التي ألفها الناس.

٤. بإمكاننا أن ندخل التمييز المنقول في مفهوم الانزياح الدلالي لما فيه من المجاز العقلي أو اللغوي أي لما فيه من الإسناد المجازي والمجاز أساس الانزياح كما هو واضح مشهور.

٥. نقل التمييز يرافق المعنى ويعطي الجملة مضمونا جديدا؛ لأنّ المعاني النحوية تتأثر بالسياق اللفظي وكل بنية شكلية تستهدف المعنى ووراء كل تعبير معنى خفي.

هدف البحث:

إن دراستنا هذه تقوم على التراكيب النحوية من جهة أحوالها البلاغية والدلالية معا (أسلوباً ومضموناً). إن الهدف الذي نتطلع إليه هو تقديم صورة جمالية لظاهرة نقل التمييز. هذا البحث كما قيل، يتناول الجانب النحوي والدلالي في التمييز متأملا ايحاءاته الدلالية وأبعاده الثانوية على ضوء نظرية العدول أو ما اصطلح عليه في الدراسات الأسلوبية الحديثة «الانزياح» نظراً إلى النص الشريف والعبارات العلوية. هذا ما سنحاول أن نسلط عليه الضوء لنبين قدر الامكان من خلال البحث ما لهاتين المعجزتين من الاعجاز البياني ونكشف عن الوجه البلاغي في ظاهرة النقل فيهما. ولابد من الإشارة إلى أن البحث قد تنوعت مصادره بين الكتب اللغوية والنحوية والقرآنية والتفاسير والرسائل الجامعية وكذلك لم ينس البحث الإفادة من المصادر الحديثة.

Archive of SID

www.SID.ir

خطة البحث:

لتحقيق أهداف البحث تم الاعتماد على الخطة الآتية:

الأول: مفهوم مصطلح الانزياح

الثاني: مفهوم نقل التمييز

الثالث: علاقة نقل التمييز بمفهوم الانزياح

الرابع: نماذج تطبيقية للتمييز المنقول في القرآن الكريم ونهج البلاغة وقيمتها الجمالية

الانزياح لغوياً وأدبياً

الانزياح لغةً: مصدر لفعل نَزَحَ، ينزَحُ، نَزحاً ونُزُوحا بمعني: بَعُدَ (ابن منظور، ١٤١٤، ج٢: ٦١٤) أما أدبياً فهو «فعل الكلام الذي يبتعد عن القاعدة» (بن زيان، ٢٠١٢: ١٢). الخروج والابتعاد عن طرق الأداء اللغوي المتعارف والانتهاك المعتمد لقانون اللغة المعيارية، هو الأمر الذي يجمع بين مختلف الاتجاهات النقدية التي اهتمت بهذا المفهوم. «ففي دراسات الغربيين نجد المصطلحات المتعددة التي تعادل مفهوم الانزياح ويمكن أن تضاف لهذا الحقل منها على سبيل التمثيل: «الابتعاد، الانحراف، الانتهاك، الغرابة، اللامألوف، التجديد والابداع» فكل هذه الالفاظ تشكل عائلة لمصطلح الانزياح وكلها تدل على المغايرة والخروج عن النظام اللغوي والنمط المألوف وتشير إلى هذا المفهوم ضمنيا أو بوضوح. وقد حاول عدد غير قليل من النقاد والدارسين العرب تأصيل مفهوم الانزياح في البلاغة العربية. ففي الدراسات العربية نجد المصطلح قد أخذ حظه من التعدد والاختلاف في المفهوم، مثل«العدول» و«الالتفات» و«الضرورة الشعرية» و«شجاعة العربية» و«إقدام العرب على الكلام» و... إلا أنها تلتفّ حول بعد مفهومي واحد هو الإقبال على الكلام بجرأة أو الإتيان بالجديد، المخالف للسابق، العادل عنه» (بن زيان، ٢٠١٢: ١٣). فبناء على ماتقدم يعتبر الانزياح خرقا لنظام معهود مألوف ومخالفة لقاعدة معلومة وتشكل ظاهرة الانزياح في نظر الدارسين الاسلوبيين انتهاكاً للاستخدام العادي للغة والنمط التعبيري المألوف. إنه مصطلح أسلوبي يعنى الخروج عن الاصل والقاعدة أي الانحراف عما هو مألوف وشائع الاستعمال. «فالذي يؤكد ارتباط النظر في إجراءات العدول بتكريس قيم الجمال هو أنها ترى في النص خلقا لجمالياته من خلال صياغته وفي هذا يفترق نص عن نص، ويختلف عمل أدبي عن آخر - لا من خلال الجودة والرداءة– ولكن من خلال نظامه الذي تتشابك فيه مستويات الصياغة، فتنتهك المثاليات المألوفة في الأداء، أو تتكرر الأنماط، أو تتكاثر المنبهات الفنية» (مراح، ٢٠٠٦: ١٣).

Archive of SID

www.SID.ir

«والتي تشكل ـ في نظر الدارسين والأسلوبيين ـ خرقا وانتهاكا للاستخدام العادي للغة، وما ذلك إلا لأنّ الأسلوبيين نظروا إلى اللّغة في مستويين: الأول: مستواها المثالي في الأداء العادي، والمستوى الثاني مستواها الإبداعي الذي يعتمد على اختراق هذه المثالية وانتهاكها» (راضي، ١٩٨٠: ٤٦). فالمستوى الثاني يعني المستوى الابداعي هو ما يقع فيه الانزياح والعدول عن الأداء العادي؛ لأن اللغة الأدبية خارجة عن القانون ومنزاحة عن العرف. فإن من مهمة اللسانيات والنقد الأدبي رصد هذا الانحراف من اللغة العادية إلى اللغة الأدبية والكشف عن تأثيره في المخاطب وانفعال أحاسيسه ومشاعره. «بمثل هذه الإجراءات الأسلوبية يحصل تخطي المألوف لصالح النبض الحي، فيأتي ما ينتجه؛ هو ما يمكننا أن نسميه أثر الأثر، نشعر هنا بأن شبح فكرة الانزياح تتسلط علينا أو تدغدغنا. إن المبدع يضع الكلمات في إطار شعوري جمالي خاص، ويشحنها بطاقات هائلة من المعاني أو يلبسها حللا جميلة للخروج فيها فإننا لا نزال بالطبع نقابل بين «الانزياح» والقاعدة» (مولينيه، ١٤٢٠: ١٦٥).

التمييز لغةً واصطلاحاً

التمييز لغةً بمعنى «الفصل». يقول الراغب: «التَّمْيِيزُ: الفصلُ بَينَ المُتشابِهات» (راغب اصفهاني، ١٤١٢: ٧٨٣) وجاء في لسان العرب: «مَيَّزَهُ: فَصَّل بعضه من بعض» (ابن منظور، ١٤١٤، ج٥: ٤١٣). وفي الاصطلاح هو إسم منصوبٌ أو مجرورٌ نكرةٌ عند البصريين، ومعرفة أو نكرة عند الكوفيين، ومتضمن معنى (من) لبيان ما قبله من إبهام في اسم أو نسبة. فالإبهام ورفعه قرينتان مهمتان في تحديد وظيفة التمييز، فضلاً عن قرينة البنية بسماتها الثلاث: الاسمية، والتنكير، والتعريف في مواضع محددة. التمييز عند النحاة نوعان: تمييز الذات: وهو الواقع بعد المقادير وتمييز النسبة: وهو ما كان مفسراً للإبهام الحاصل في النسبة، ويشمل المحول منه، ما كان أصله مبتدأ أو فاعلاً أو مفعولاً (راجع: السيوطي، ١٤١٨، ج٢: ٢٦٢؛ حسن عباس، لا تا، ج٢: ٤١٥؛ الفراهيدي، ١٤٠٥: ٤٦؛ الازهري، ١٤٢١، ج١: ٦١٧). فمن الواضح أن التمييز في هذه النوع أعني المحول، محول أو منقول مما أصله مبتدأ، أو فاعل، أو مفعولبه وكما صرح به، لا يحدث العدول من تعبير إلى تعبير إلا ويصحبه عدول من معنى إلى معنى آخر، أي أنه لا يعدل من الفاعل أو المفعول إلى التمييز إلا عدل بالمعنى إلى المعنى كما قال عبدالقاهر: «و اعلم اذا تغير اللفظ فلا بد حينئذ من أن يتغير المعنى» (الجرجاني، ٢٠٠٤: ٢٦٥). هذا ما يتناوله هذا البحث محاولا رصد الانزياح الموجود في نقل التمييز وتبيين مدى

Archive of SID

www.SID.ir

اسهام تغيير التعبير في الدلالة. فنتطرق هنا على علاقة نقل التمييز بالانزياح ونبحث عن الانزياح الموجود في هذه الظاهرة:

نقل التمييز وعلاقته بالانزياح

هنا يأتي الدور للاجابة عن سؤال وهو: هل تمثل ظاهرة النقل خروجا عن الأداء اللغوي المألوف وخرقاً لقوانين اللغة المتعارف عليها؟ فالجواب رهين لما قيل في تعريف الانزياح. الانزياح كما عرفناه سابقا هو انحراف الكلام عن النمط المألوف في اللغة. فبالنظر إلى ما قيل حول مفهوم الانزياح وما فيه من الدلالة على الابتعاد عن النظام اللغوي والنمط البياني المألوف، يمكننا أن ندخل نقل التمييز من العناصر النحوية الأخرى، في هذا المصطلح؛ إذ نجد فيه عدولا عن المألوف من الكلام ولونا فنيا من ألوان التعبير. في هذه الظاهرة التي تسمى بالنقل الوظيفي، يعدل باللفظ عن وظيفته النحوية إلى وظيفة أخرى «كما عبر عنه بعض النحويين بمصطلح «العدول» إلا أنهم قصروه على الأسماء ويعنى به إخراج الاسم عن صيغته الأصلية» (رمضان النجار، ٢٠٠٧: ٢٧). ويبرز الانزياح في ظاهرة النقل من كلام «عبد القاهر الجرجاني» بشكل أوضح في حديثه عن النظم الشعري. فقد أورد الجرجاني مصطلح العدول للدلالة على ترك طريقة في الصياغة إلى طريقة أخرى، أحسن في التعبير عن المعنى هذا بمعنى العدول عن معنى من معاني النحو إلى معنى آخر لأداء دلالة لا يعطيها المعنى الأول (راجع: الجرجاني، ٢٠٠٤: ٢٦). كلام الجرجاني يعطي تعريفا آخر لظاهرة النقل وهو «تحول اللفظ من قسم آخر من أقسام الكلم» ويقول هو في موضع آخر: «وإنما تكون المزية ويجب الفضل إذا احتمل في ظاهر الحال غير الوجه الذي جاء عليه وجها آخر، ثم رأيت النفس تنبو عن ذلك الوجه الآخر ورأيت للذي جاء عليه حُسْناً وقبولا تعدمهما إذا أنت تركته إلى الثاني (راجع: الجرجاني، ٢٠٠٤: ٢٨٦). فالنقل باب واسع في العربية التي تشمل فيها ظواهر لغوية مختلفة في مستويات اللغة كلها وهو إحدى طرائق توسع المعنى وصورة من صور العدول عن الأصل فيما يتصل باستعمال البنية ومعناها في اللغة. فهذه التعاريف تدخل التمييز المحول في مصطلح العدول. وفقاً على ما تقدم، يعتبر التمييز المحول انزياحاً من وجهين:

الأول: الانزياح التركيبي، هذا النوع من الانزياح على حدّ تعريف أحمد محمد ويس «متعلق بتركيب الكلمات بعضها مع بعض في السياق الذي ترد فيه سياقا قد يطول وقد يقصر وتركيب العبارة الأدبية عامة والشعرية على نحو خاص يختلف عن تركيبها في الكلام العادي أو النثر

Archive of SID

www.SID.ir

العلمي. ففي الكلام العادي تكاد تخلو إفراداً وتركيباً من كل ميزة أو قيمة جمالية في حين أن العبارة الأدبية أو التركيب الأدبي قابل لأن يحمل في علاقاته قيما جمالية. فالمبدع الحق هو الذي يمتلك القدرة على تشكيل اللغة جمالياً بما يتجاوز إطار المألوفات» (ويس، ٢٠٠٢: ١٢٠).

بناءً على هذا، نقل التمييز كظاهرة أسلوبية يعد نموذجاً من الانزياح التركيبي الذي تجسد في علم المعاني؛ إذ أن للغة العربية بنية نحوية عامة ومطردة كما هو الحال في كل اللغات؛ ففي اللغة العربية مثلا الفاعل يكون تالياً لفعله وسابقا مفعوله فقد اعتاد القارئ على هذا النمط البياني الثابت فنقل كل من العناصر المذكورة من مكانها إلى التمييز يعطي المخاطب أبعادا لغوية غير تلك التي ألفها الناس؛ فالتعبير بـ«إزداد كفرُهم» تعبير مألوف ومعهود فتبادل مكان المفردات وبيان «إزدادوا كفراً» يواجه القارئ بالتنوع والتجدد في استعمال اللغة ويلفت إنتباهه ويثير الانفعالات في قلبه بواسطة استخدام امكانات اللغة وتوظيفها للتعبير عن الحالات الوجدانية التي لا تستجيب لها الصور البيانية المألوفة.

والثاني: الانزياح الدلالي، فيمكننا القول بأن ظاهرة نقل التمييز، تعتبر نوعا من الانزياح الدلالي لما فيها من المجاز العقلي أو اللغوي. فالأصل هو الحقيقة لأن الحقيقة من البعد اللغوي تعني معنى الثبات فمقابل ذلك يأتي الحديث عن تجاوز المألوف أو المجاز. فالمجاز يعد أساس الانزياح ويمكننا تحسس ذلك من خلال هذا التعريف للجرجاني: «المجاز مَفعَل من «جاز الشيء يجوزه» إذا تعداه وإذا عدل باللفظ عما يوجبه أصل اللغة ووصف بأنه مجاز على معنى أنهم جازوا به موضعه الأصلي أو جاز هو مكانه الذي وضع فيه أولا» (الجرجاني، ١٩٩١: ٣٩٥). فيضعنا عبد القاهر أمام حقيقة أسلوبية تبين قيم الارتباط بين العدول وتداعياته الجمالية وبين المجاز. فإنه أراد من ذلك توضيح مفارقة الأسلوب المجازي الفني للأسلوب الأصلي العادي، تلك المفارقة التي تميز أسلوبا من أسلوب، فبناءً على هذا، فالمجاز ضرورة تعبيرية وقيمة جمالية ومن مظاهر تخطي الأصل وهو أكبر قيمة في انتهاك النظام اللغوي وإبداع الصور الفنية وفي الاقتصاد اللغوي والتوسيع الدلالي. فنظراً إلى هذا التحليل ترد ظاهرة النقل في حقل العدول الدلالي. فإسناد الفعل الى غير فاعله الحقيقي كما في قوله تعالى، «ازْدادُوا كُفْراً» (آل عمران: ٩٠). تركيب لا يتفق والنظام النحوي ولهذا يندرج تحت مفهوم الانزياح التركيبي ومن ناحية أخرى نجد هذا التركيب غير مألوف من الناحية الدلالية لما فيه من إسناد مجازي. فهذا التركيب المعدول نحوياً ودلالياً أدى معنى ثانياً بليغاً واسعاً لا يؤديه التركيب المألوف من ناحية الدلالية والنحوية. فهو يدل على كثرة كفرهم وإحاطته بهم.

Archive of SID

www.SID.ir

دلالة التمييز المنقول

النقل كما قيل، هو تحول اللفظ من قسم الى قسم آخر من أقسام الكلم. فالنقل إما أن يكون على دلالة البنية أو شكلها، أو على المعنى الوظيفي النحوي أو العمل النحوي، أو الإعراب وغير ذلك مما أطلقوا عليه تسميات مختلفة. فهو إحدى طرائق توسع المعنى وصورة من صور العدول عن الأصل فيما يتصل باستعمال البنية ومعناها في اللغة. إنه باب واسع في العربية ينضوي تحت مظلته ظواهر لغوية مختلفة في مستويات اللغة كلها وهي من أهم الظواهر التي تدل على نظام اللغة العربية المترابط؛ لذلك اصطلح عليه النحاة واللغويون القدامى والمعاصرون أو على جوانب منه باصطلاحات كثيرة وتناولوه في أبواب عديدة (راجع: www.annabaa.org)

نقل التمييز وتغيير مكانها في سلسلة اللغة، يعد من أكثر المباحث النحوية جمالاً. القياس بين الجملة التي تحتوي التمييز والجملة التي نقل فيها التمييز من العناصر النحوية الأخرى ووقع التمييز موقع هذه العناصر، يثبت التمايز ما بين الجملتين. الغرض من النقل، الفصل أو إنفكاك اللفظ عن نطاقه المعنوى ونقله من مكانه إلى الآخر للقيام بمهمته. فلهذا على الرغم من أننا لا نستطيع أن نقول إستخدام التمييز بجميع أنواعه يندرج في مصطلح الانزياح لكن نقله من المبتدأ أو الفاعل أو ... يدخل في نطاق الانزياح كما يستخدم له بعض النحاة مصطلح «العدول» وهذا التعبير يشير إلى الانحراف أو الخروج عن المألوف والعدول عن المعايير اللغوية. لعل أبرز سمة أسلوبية لشواهد التمييز المنقول هي قصد الاتساع والشمول والمبالغة وهذا ما تؤيده الشواهد القرآنية وما يؤكد عليه المفسرون واللغويون. قال الزمخشري في كتابه المفصّل: «هذه التمييزات مزالة عن أصلها ... والسبب في هذه الإزالة قصدهم إلى ضرب من المبالغة والتأكيد» (الزمخشري، ٢٠٠٦: ٢٣). يقول إبن يعيش شارحاً قول الزمخشري في المفصل: «ومعنى المبالغة أن الفعل كان مسنداً إلى جزء من الفاعل فصار مسنداً إلى الجميع وهو أبلغ في المعنى والتأكيد أنه لما كان يفهم منه الاسناد إلى ما هو منتصب به ثم أسند في اللفظ إلى الفعل تمكن المعنى ثم لما احتمل أشياء كثيرة تبين المراد من ذلك بالنكرة التي هي فاعل في المعنى فهذا معنى قوله: والسبب في هذه الإزالة قصدهم إلى ضرب من المبالغة والتأكيد» (ابن يعيش، دون تا، ج٢: ٧٥). على أي حال ما هو مؤكد هو أن نقل التمييز فرع من العدول. وقد وردت في القرآن الكريم ثم نهج البلاغة، شواهد عديدة منه وهذه الدراسة تتناول هذا، محاولةً للكشف عن أسراره البلاغية.

Archive of SID

www.SID.ir

شواهد من التمييز المنقول في القرآن الكريم:

يبدو ضروريا أن نقوم بتبين ظاهرة النقل في التمييز مستشهدا بنماذج تطبيقية في القرآن ومدى إسهامه في تطوير الدلالة وروعة البلاغة ثم نحاول الكشف للعلاقة بين هذه الظاهرة وإبراز السمات الفنية الناتجة عن هذا العدول والاخراج الجمالي في النص القرآني.

وقد إستخدم القرآن التمييز مع ما حمله من ميزات لغته فآياته غنية بهذا الأسلوب الذي سهرت العقول متفكرة فيما يختزنه من ذخائر وما ينطوي عليه من أسرار فلهذا حاولنا الوقوف على نماذج لأبرز مواضع التمييز فيه لنقيم عليه دراستنا. فالقرآن حينما يستعمل لفظاً ما في تعبير يقصد من استعماله هو بعينه دون غيره، ولا يدل عليه سواه، وقد يظن صاحب الفطرة النقية، والسليقة اللغوية العربية، أنه بإمكان التغيير والتبديل، ولكن عند الدراسة والبحث والتأمل، يتضح أنه جاء لحكمة بيانية اقتضاها السياق. الآية الأولى التي تعتبر من أبرز النماذج وأجملها من التمييز المنقول هي الآية الثلاثون من سورة يوسف عليه السلام :

﴿وَقالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُراوِدُ فَتاها عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَها حُبًّا إِنَّا لَنَراها فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾. انتصاب حُبًّا على التمييز وهو محول عن الفاعل إذ الأصل «قد شغفها حبُّه» فالنسبة الموجودة في الآية أعني نسبة الفعل إلى «يوسف» عليه السلام بدلاً من نسبته إلى «الحبّ» طبقاً لما أشير إليها، تفيد المبالغة وأيضاً الشمولية. فالمبالغة بمعنى أن حب يوسف عليه السلام ، بلغ من قلبها، مبلغا عظيما وإمرأة العزيز تعلّقت به إلى درجة نفذ حبّه إلى قلبها واستقرّ في أعماقها وخرق حب يوسف عليه السلام شغاف قلبها حتى وصل إلى الفؤاد. والشمولية بمعنى أن إمرأة العزيز لم تكن فتنها حب يوسف فقط بل شغفها وجوده بأكمله. فالعبارة القرآنية التي قالتها جماعة من النساء إشارة إلى معرفتهن بأن فتن زليخا لا يقتصر بحب يوسف عليه السلام فقط بل بكل ما فيه من جمال وحسن؛ فالنقل من تعبير إلى آخر، يفيد معنى تعجز عنه عبارة «قد شغفها حبُّه». تقول الدكتور رمضان النجار: «فقد عدل بالفاعل إلى وظيفة التمييز ولعل السر وراء هذا العدول يرجع إلى أن أمرأة العزيز لم يشغفها حب يوسف فحسب بل شغفها يوسف نفسه بشخصه وشكله وحبه وكل ما يتعلق به وهو ما أدى بها إلى الافتتان به ودعا إلى مراودته عن نفسه. يقول تعالي: **﴿وَراوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِها عَنْ نَفْسِهِ وغَلَّقَتِ الْأَبْوابَ وقالَتْ هَيْتَ لَكَ قالَ مَعاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾** (يوسف: ٢٣). ولو كان الذي شغفها حبه فقط ما كانت عمدت إلى مثل هذا الفعل ومن هنا

Archive of SID

www.SID.ir

جاء قول النسوة: «قد شغفها حبا» باسناد الشغف إلى يوسف لا إلى الحب لعلمهن أن إفتتانها به لم يقتصر على الحب فقط؛ لذا جاء ردها عليهن بقولها: ﴿فَذلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾ (يوسف: ٣٢) ومن ثم ناسب أن يعدل الأسلوب القرآني عن أن يأتي بالعبارة على أصلها إلى ما جاء به ليدل ذلك على شمول شغفها وعمومه بيوسف وهو ما يتفق ومدلول السياق» (رمضان النجار، ٢٠٠٧: ٢٩). ومن ناحية أخرى المجاز العقلي الموجود في هذه الآية الكريمة يعطي لنا جواز اعتباره نوعا من الانزياح الدلالي. الاسناد المجازي الموجود في هذه الآية الشريفة أعني إسناد «شغف» إلى «يوسف» عليه السلام بدلا من إسناده إلى «الحب» نوع من المجاز العقلي الذي يعد من التشكيلات الكلامية القائمة على الابداع وتجاوز المألوف وفيها اتساع شديد وخروج عن مألوف الاستخدام اللغوي لنقل المعاني التي لا تستطيع ألفاظ اللغة القاصرة أداءها. الانزياح الدلالي الحاصل من المجاز هو الذي من خلاله يمكننا أن نصل إلى عمق المعنى لأية جمله نسمعها ويمكن من خلاله اذابة كافة المعاني والكلمات التي يمكن أن تجعلنا نبتعد عن المعنى المقصود. والشاهد الآخر هو قوله تعالى في سورة غافر:

١. ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تابُوا واتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وقِهِمْ عَذابَ الْجَحِيمِ﴾ (غافر: ٧). قوله سبحانه حكاية عن حملة العرش وهم ملائكة عظام وضعوا العرش على أكتافهم ومن حول العرش من سائر الملائكة يسبحون بحمد ربهم ينزهونه حامدين له ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا يطلبون من الله الغفران بهذه العبارة: ربنا وسعت كل شيءٍ رحمة وعلًما أي وسعت رحمتك وعلمك كل شيء فاغفر للذين تابوا عن الكفر والعصيان واتبعوا سبيلك. انتصاب «رحمة» و«علما» على التمييز المحوّل عن الفاعل أي وسعت رحمتك كل شيء ووسع علمك كل شيء. قال سيد رضي حول الآية الكريمة: «و المراد- والله أعلم- أنّ رحمتك وعلمك وسعا كلّ شيء، فنقل الفعل إلى الموصوف على جهة المبالغة كقولهم: طبت بهذا الأمر نفسا. وضقت به ذرعا. أي طابت نفسي، وضاق ذرعي. وجعل العلم موضع المعلوم، كما جاء قوله سبحانه: ﴿ولا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِما شاءَ﴾ أي بشيء من معلومه» (سيد رضي، دون تا: ٢٨٩). فالمبالغة والاغراق ثمرة نقل التمييز طبقا لما في قول المفسرين أجمعين فكلهم قائلون بأن: أسند الفِعل إلى صاحب الرحمة والعلم، وأخرجا منصوبين على التمييز للإغراق في وصفه بالرحمة والعلم، كأن ذاته رحمة وعلم واسعان كل

Archive of SID

www.SID.ir

شيءٍ (راجع: الزمخشري، ١٤٠٧، ج٤: ٤٣٤؛ آلوسي، ١٤١٥، ج٨: ٣٨٠؛ ابن عاشور، دون تا، ج٢٤: ١٥٤). هذا ما يعادل بالضبط رأي الدكتور عضيمة الذي يعتبر استخدام التمييز في الأية دالا على المبالغة والإغراق (راجع: عضيمة، ١٣٩٢، ج٣: ١٧٥).

من الأفعال التي يستعمل معه التمييز، فعل «زاد» وما اشتق منه. بناءً على رأي الدرويش في إعراب القرآن، «زاد» يتعدى لاثنين ومطاوعه يتعدى لواحد فقط (راجع: درويش، ١٤١٥، ج١: ٥٥٩). وما يبدو جديراً بالذكر هي أنه إذا جاء لفظ منصوب بعد «إزداد»، يجب حمله على التمييز لكن إذا وقع المنصوب بعد «زاد» يمكن أن نعتبره المفعول به ويمكن حمله على التمييز أيضا فتصح الحالتان. أما إذا نعتبره التمييز فالفعل متعد إلى مفعول واحد؛ كما جاء في القرآن:

٢. ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ (البقرة: ٢٤٧). يقول درويش حول الآية: «بسطة مفعُول به ثان ويجوز إعراب بسطة تمييزا إن قلنا إنه يتعدى لواحد» (درويش، ١٤١٥، ج١: ٣٦٩). فمن الواضح أن معنى الآية في كل حالة مغاير للأخرى وإنْ كلا المعنين متقاربان. فإن نعتبر «بسطة» مفعولٌ به، يدل على أن الله أضاف على سعة علمه وقدرته بالنسبة إلى ما كان وأما في الحالة الثانية، فتكون «بسطة» التمييز المنقول من المفعول فيقع الفعل أعني «زاد» على «طالوت» بدلا من «بسطة» فيتبدل «زَادَ بَسطَتَهُ» ويكون «زَادَهُ بَسطَةً». ومن ناحية المعنى يضاف معنى الشمول إليه فكأنما ذاته أحيط بالعلم والقدرة كله. ففي كلتا الآيتين يوجد إسناد مجازي أو مجاز عقلي ونسبة الفعل إلى فاعل غير حقيقي والذي يعتبر من الملاحظات الأسلوبية ومن مظاهر تجاوز الأداء اللغوي من خلال ما ينتجه المجاز من صور بيانية. فكثيراً ما نصادف هذه اللمحات الدلالية بواسطة المجاز الذي يمتلك القدرة على تشكيل اللغة جمالياً بما يتجاوز إطار المألوفات.

«ولا شك في صلاح كل كلمات القرآن الكريم للتمثيل على الدقة المتناهية في اختيار الالفاظ، وحسبنا ما قدمنا دليلاً واضحاً على الدقة في الدلالة على المعنى، وحسن انتقاء اللفظ، واستعمال ما هو أحق بالمعنى وأولى في الاستعمال، فقد يشترك لفظان في معنى واحد، ولكن احدهما أدق من الآخر في الدلالة، وأدْخل في المعنى، وأقدر على التعبير عنه من اللفظ الآخر فالدقة في التعبير، والحيطة في استعمال اللفظ، مطلب قرآني حرص عليه، ونبه الفطر السليمة إليه حتى لا تضل المعاني في الافهام، ويضيع المقصود بين الاحتمالات» (السبعاوي، ٢٠٠٤: ٤). قال الله تعالى في سورة آل عمران:

Archive of SID

www.SID.ir

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمانِهِمْ ثُمَّ ازْدادُوا كُفْراً لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وأُولئِكَ هُمُ الضَّالُّون﴾ (آل عمران: ٩٠). ويقول أيضا في سورة نساء: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدادُوا كُفْراً لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ ولا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً﴾ (نساء: ١٣٧). فنواجه في كلتا الآيتين بمظاهر نقل الفاعل من مكانه إلى التمييز وهو ﴿ازْدادُوا كُفْراً﴾. فالمقصود من قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمانِهِمْ﴾ هو الذين ارتدوا عن الإسلام بعد دخولهم فيه وتصديقهم بما جاء به رسوله ﷺ كاليهود الذين كفروا بعيسى عليه السلام بعد إيمانهم بموسى عليه السلام ثم ازدادوا كفرا بالإصرار والعناد والصد عن الايمان ونقض الميثاق وأيضا الكفر برسول الله محمد ﷺ ، لن تقبل توبتهم لأنها لا تكون عن الإخلاص أو لأنها لا تكون الا عند اليأس ومعاينة الموت وأُولئك هم الضالون الثابتون على الضلال.

فيبدو أن التحويل من الفاعل إلى التمييز فيهما للدلالة على الشمول والمبالغة أيضا فإسناد «الازدياد» إلى الكفار عوضا عن كفرهم يدل على كثرة كفرهم وعلى أن الكفر أحاطهم وتأصل فيهم حتى كأنّ الكفر جزء من وجودهم. فالتعبير بـ«ازْدادَ كُفْرُهم» لا يفيد المبالغة؛ لأنه يمكن أن يقول إنّ كفرهم ازداد بالنسبة إلى الماضي لكن لا يصل إلى نهايته. فالمبالغة من ناحية أخرى تكون ثمرة المجاز كما في الآيات السابقة. فالنقل من الفاعل إلى التمييز يشمل نوعاً من الاسناد المجازي وهو إسناد «ازداد» إلى غير فاعله الحقيقي أعني الضمير الراجع إلى الكفار. فكلاهما يؤديان إلى الاتساع في الكلام وإلى تكثير معاني الالفاظ والتلذذ الحاصل من التمحيص والتدقيق.

إن التمييز في الكلام يأتي على صور مختلفة منها التمييز الواقع بعد اسم التفضيل وأكثر ما يكون تمييز النسبة محوّلاً عن الفاعل أو عن المفعول في الحقيقة أنه يعدل من الفاعل أو المفعول إلى التمييز لقصد الابهام في الكلام بالإضافة إلى الاتساع والشمول والمبالغة أيضا. فالسؤال الأساسي هو ما الغرض من تحويل الفاعل أو المفعول إلى التمييز؟ أي ما الغرض من الإبهام؟ وما الفائدة في هذا الابهام؟ هل هناك اختلاف في المعنى بين القولين؟ في الحقيقة أن هذا تفصيل بعد الاجمال والنفس تشوق إلى الايضاح بعد الابهام والتفصيل بعد الاجمال. قال الرضي في شرح الكافية: «إنما خولف بها لغرض الابهام أولا ليكون أوقع في النفس لأنه يتشوق النفس إلى معرفة أبهم عليها وأيضا إذا فسرته بعد الإبهام فقد ذكرته إجمالا وتفصيلا» (الاسترآبادي، دون تا، ج١: ٢٢٣). ويقول إبن عاشور: «هي فائدة

Archive of SID

www.SID.ir

تمييز النسبة في كلام العرب؛ لأن للتفصيل بعد الإجمال تمكينا للصفة في النفس» (ابن عاشور، دون تا، ج٢٤: ١٥٤). هذا ما يؤكد عليه علامة الصبّان في شرح كلام الأشموني ويذهب إلى أنّ العدول من تعبير إلى الأخرى والبيان بعد الابهام يضاعف لذة الكلام وأوقعه في النفس ويثير الانفعال؛ لأن المخاطب يجده بعد الجد ويكشفه بعد المحاولة فهو لا يخاطب العقل ولكنّه يخاطب العواطف والمشاعر التي يغلب دورها على دور العقل. يقول الصبّان: «إنما عدل عن هذا الأصل ليكون فيه إجمال ثم تفصيل فيكون أوقع في النفس لأن الآتي بعد الطلب أعز من المنساق بلا طلب» (الصبّان، ١٣٠٥، ج٢: ١٤٥). فهذا هو الغرض البلاغي من استخدام التمييز بدلا من المفعول أو الفاعل وهو من أهم ما وجب لفت الانتباه إليه بما يتيحه من الغموض الفني والدفع إلى الاستكشاف حيث يتشوق القارئ بعد أن أعمل عقله وخياله في اكتشافه. فيقصد إليه لإثارة العواطف وتنبيه الوجدان فضلا عن إظهار المعاني ويستهدف إنهاض النفوس إلى الإستغراب والمستغرب ما لم يكن معهودا ومألوفا. فبإمكاننا أن نقول هذا هو السبب الحقيقي لمنع تقديم التمييز على عامله؛ لأنّ هذا التقديم ينقض الغرض الأصلي من استخدام التمييز، أعني حصول الابهام لما أن التقديم يمنع الابهام ويبين الغرض بوضوح في بداية الأمر. قال الله تعالى:

٣. ﴿**فَاللَّهُ خَيْرٌ حافِظاً وهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ**﴾ (يوسف: ٦٤) «الله» مبتدأ و«خير» خبر وحافظا تمييز نقل من الفاعل إلى التمييز وأصله: «فالله خيرٌ حافظُهُ». يقول آندلسي: «حافظا اسم فاعل، وانتصب حفظا وحافظا على التمييز، والمنسوب له الخير هو حفظ اللّه، والحافظ الذي من جهة اللّه. وأجاز الزمخشري أن يكون حافظا حالا، وليس بجيد، لأن فيه تقييد خير بهذه الحال» (اندلسي، ١٤٢٠، ج٦: ٢٩٥). حذف الفاعل أو النقل من الفاعل إلى التمييز يشمل نوعاً من الانزياح التركيبي لما فيه من التغيير والتبديل في دور الالفاظ وهذا العدول من تعبير إلى الأخرى يؤدي إلى الاتساع في الكلام وإلى تكثير معاني الالفاظ والتلذذ الحاصل من التمحيص والتدقيق. فالآية تتضمن الإسنادين بمعنى أنّ «خيرٌ» أسند أولا إلى «الله» ثم خصص «حفظ» بالذكر مثل ما قيل له في علم المعاني «ذكر الخاص بعد العام». فالتمييز يعطي الآية معني الشمول والاتساع لتكرار الإسناد وتأكيده فيتضح لنا الفرق بين «فالله خيرٌ حافظا» و«فالله خيرُ حافظٍ»؛ فيمكن القول بأن الجملة الأولى اكثر تأكيدا وأقوى من الثانية بمعنى أن الله خير من جميع الجهات خاصة الحفظ لكن الثاني بمعنى أن الله خيرٌ من جهة الحفظ ولا يفيد معنى أكثر.

Archive of SID

www.SID.ir

ذهب الرضي إلى أن «قوله (فالله خير حافظاً) بالنصب أي خير من حافظ فهو والجر سواء نحو خير حافظ وخير حافظاً فهو حافظ في الوجهين» (الاسترآبادي، دون تا، ج١: ٢٤٣). وذكر السامرائي أن معنى (فالله خير حافظاً) و(خير حافظ) بالجر سواء ففيه نظر لأن المعنى مختلف، فالنصب يحتمل معنيين، الحال والتمييز كما تقول (هو أكرم أباً) و(هو افضل كاتباً) فهذا يحتمل الحال أي هو أحسن في هذه الحال، ويحتمل التمييز. وفي تعريف بحفظهم أي لم يستطيعوا حفظ يوسف فلعلهم لا يستطيعون حفظ أخيهم الآخر أيضاً فالمعنى أن الله خير حافظاً منكم. ولا يتأتى هذا المعنى في الجر إذ لا يراد به المقارنة بمن، فضلاً عن أن النصب يدل على الفاعلية وأنه مغاير للمفضل أي أن الحافظ الذي يجعله الله خيراً منكم... و(هو خيرٌ حافظاً) أي حافظه خيرٌ منكم بخلاف الجر فإنه يكون هو الحافظ. فحافظ الله خيرٌ منهم فليست المقارنة بينهم وبين الله، وإنما المقارنة بينهم وبين حفظة الله ولا يأتي هذا المعنى في الجر (راجع: السامرائي، ١٤٢٠، ج٢: ٣٣٢).

نموذج آخر من سورة الكهف:

١. ﴿**قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالاً**﴾ (الكهف: ١٠٣): أعمالا تمييز نقل من الفاعل وجمع التمييز وهو أصيل في الافراد لمشاكلة المميز وللايذان بأن خسران المشركين إنما كان من جهات شتى لا من جهة واحدة ولأن أعمالهم في الضلال مختلفة وليسوا مشتركين في عمل واحد. يقول گنابادي: «خسران الرّجل ضلاله، وخسران التّجارة المبايعة بنقصان البضاعة أو الغبن في المعاملة، وخسران العمل ضياعه وبطلانه بلا ثمر، فالخاسر العمل من لا يترتّب على عمله فائدته المقصودة منه ولا يبقى من عمله اثر ينفعه، والأخسر من كان يترقّب بعمله خيرا كثيرا ويتعب نفسه فيه ثمّ لم يترتّب على عمله مأموله أو ترتّب عليه ضدّ مأموله» (گنابادي، ١٤٠٨، ج٢: ٤٨٥). على أي حال، التمييز منقول من الفاعل فهذا أدل وأقوى وأكثر تأكيدا على خسران المشركين ويعطي الآية معني الشمول والتكثير والمبالغة؛ بمعنى أنهم يختلطون بالخسران أو الخسران أحاطهم إحاطة كاملة. فحذف الفاعل وذكر التمييز نقل دلالة الجملة إلى معنى جديد وهذا المعنى يمكن من وراء الانزياح الموجود في الآية. فالآية هذه أيضا تتضمن الإسنادين بمعنى أنّ «خسران» أسند أولا إلى «المشركين» ثم خصص «أعمال» بالذكر ففي هذا تأكيد على هذا الخسران وتمكن المعنى في النفس. قال الله تعالى في سورة مائدة:

Archive of SID

www.SID.ir

٢. ﴿أُولئِكَ شَرٌّ مَكاناً وأَضَلُّ عَنْ سَواءِ السَّبِيلِ﴾ (المائدة: ٦٠). نصب مكاناً على التمييز وهو منقول من الفاعل وأصله: «شَرٌّ مَكانهُم». فأسند إلى الكفار مبالغةً وتأكيداً. جاء في إعراب القرآن: «المجاز المرسل في قوله: «شر مكانا»، وعلاقته المحلية فقد ذكر المكان وأراد أهله» (درويش، ١٤١٥، ج٢: ٥١٥). فإسناد الشر إلى مكانهم إسناد مجازي يدل على شرارتهم فكنى عن شرارتهم بشرارة مكانهم وهو سقر؛ لأنه أبلغ في المعنى وفي الدلالة على شراراتهم. ورد في تفسير آلوسي: «إثبات الشرارة لمكانهم ليكون أبلغ في الدلالة على شرارتهم، فقد صرحوا أن إثبات الشرارة لمكان الشيءِ كناية عن إثباتها له، فكأن شرهم أثر في مكانهم، أو عظم حتى صار مجسما» (آلوسي، ١٤١٥، ج٣: ٣٤٤). يوضح الزمخشري هذه العبارة عند تفسير الآية قائلا: «جعلت الشرارة للمكان وهي لأهله. وفيه مبالغة ليست في قولك: أولئك شر وأضل، لدخوله في باب الكناية التي هي أخت المجاز» (الزمخشري، ١٤٠٧، ج١: ٦٥٣). هذا هو رأي طبرسي وكثير من المفسرين أيضاً.

من جهة أخرى، يمكن أن نقول إن في الآية جمع الإسنادين؛ بمعنى أن «شرٌ» أسنِد إلى الكفار مرةً وأسند إلى مكانهم مرة أخرى فهذا أدل وأقوى وأكثر تأكيدا على شرارة الكفار.

وفقاً لما تقدم، يمكن أن نقول إن وراء كل تركيب نحوي يحتوي التمييز المنقول، يستخفي نوع من المجاز وهذا المجاز غالباً من نوع عقلي وإن يوجد فيه المجاز المفرد المرسل أحيانا. فلما كان استعمال اللفظ في غير معناه الأصلي شبيها بالانتقال من موضع إلى آخر، فلا جرم أن سمي مجازا وقد أخذ البلاغيون بهذا المعنى، واستعملوه للدلالة على نقل الألفاظ من معنى إلى آخر، قال عبد القاهر: «أما المجاز فقد عوّل الناس في حدّه على حديث النقل، وأن كل لفظ نقل عن موضوعه فهو مجاز (الجرجاني، ٢٠٠٤: ٦٦). وهذا التعريف يؤيد مزية المجاز المرسل فيما يتيحه إضافة إلى إمكانية الاخراج الجمالي للعبارة. لقد مكنت الصور المجازية المرسلة من أن توجه وفق منظور خاص إلى التطور الذي يحصل على مستوى الدلالة، فيجعل اللغة أكثر طوعية عند الاستعمال وإلى ما تقوم عليه من قيم تظهر في المجاز المرسل وعلاقاته باعتباره صورة في تغيير الدلالة وتنوعها وهي صورة أيضا لنمو اللغة في إحدى منعطفات تغيراتها حيث تتعدد دلالاتها. فبالنظر إلى هذه الآيات، يتضح لنا سر نقل التمييز في الآية الرابعة والعشرين من سورة فرقان:

١. ﴿أَصْحابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وأَحْسَنُ مَقِيلا﴾. قيل المراد بالمستقر المكان الذي يستقر فيه، والمقيل مكان الاستراحة، مأخوذ من مكان القيلولة. ويحتمل أن يراد بأحدهما

Archive of SID

www.SID.ir

الزمان، أي مكانهم وزمانهم أطيب ما يتخيل من الأمكنة والأزمنة (راجع: طريحي، ١٣٧٥، ج٣: ٤٤٥). فكلاهما نقلا من الفاعل إلى التمييز كأنما قيل: ﴿**أَصْحابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرُّهم وأَحْسَنُ مَقِيلُهم**﴾. فإسناد «خير» و«أحسن» يمكن أن يكون مجازيا على جهة المبالغة فهناك فرق بين: ﴿**خَيْرٌ مُسْتَقَرُّهم وأَحْسَنُ مَقِيلُهم**﴾ و﴿**خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وأَحْسَنُ مَقِيلا**﴾. ففي الأول أسند «خير» أو «أحسن» إلى «مستقر» أو «مقيل» مباشرةً وفي الثاني، أسندا إلى ﴿**أَصْحابُ الْجَنَّةِ**﴾ كلهم ثم خصص «مستقر» أو «مقيل» بالذكر فالآية تتضمن الإسنادين وجمع المعنين في الوقت نفسه. فلهذا يمثل الآية نموذجاً من الانزياح الدلالي ومن ثم خروجاً عن الأداء الأدبي المألوف بواسطة استخدام التمييز المنقول ويستهدف الانزياح تركيبيا كان أم دلاليا، إفادة المبالغة والكثرة. خذ نموذجا آخر من استعمال التمييز في القرآن وهو مع «ساء»:

٢. ﴿**سَاءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنَا**﴾ (الأعراف: ١٧٧) لم يقتصر الاستعمال القرآني على فعل الذم (بئس) بل وظف القرآن الكريم أفعالاً أخرى قياسية على وزن (فَعُلَ) للدلالة على الذم مفيداً من دلالتها في بناء تركيب مميز ذي وقع مخصوص على نفوس المخاطبين، ومن هذه الأفعال (ساء) فقد ورد هذا الفعل على وفق هذا النمط التركيبي. حيث ورد فاعل ما محذوفاً، ثم فُسر ذلك المحذوف بالنكرة المنصوبة على التمييز، وقوله (مثلاً) منصوب على التمييز مبالغة وتأكيداً؛ لأن ذكر الشيء مبهماً ثم مفسراً أوقع في النفس من أن يفسر أولاً وعليه فانه لا يمكن أن يصل النص إلى هذا التأثير الرائع والقدرة الإيحائية ، لو ذكر الفاعل وأزيل إبهامه واجماله، فقيل (ساء المثل) ولحمل التركيب دلالة الإخبار بأن المثل سيئ ، في حين أن حذف الفاعل وذكر التمييز بهذه الصورة نقل دلالة الجملة إلى معنى جديد هو التعجب من سوء هذا المثل، مع ما أفاده الفعل (ساء)من دلالة الذم. وهل هناك أسوأ من هذا المثل مثلاً؟ في التعري والانسلاخ واتباع النفس والهوى واتباع الشيطان، واللصوق في الأرض وفي النهاية الهبوط بنفسه إلى عالم الحيوان، ويعيش تلك الحيرة والقلق، فكان مثله كمثل الكلب اللاهث أبداً.

نتناول آخر نموذج للتمييز من سورة المائدة خاتمين البحث حول الأيات الشريفة القرآنية. هذا نموذج من التمييز المجرور:

٣. ﴿**تَرى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ**﴾ (المائدة: ٨٣) جملة تفيض حالية، ومن الدمع جار ومجرور في محل نصب على التمييز. الانزياح التركيبي بينٌ في الآية فتكون الآية منسوجة على منوال القلب للمبالغة؛ قلب قول الناس المتعارف: «فاض الدمع من العين» فقيل «فاض

Archive of SID

www.SID.ir

العين من الدمع». الآية أيضا تشمل على الانزياح البياني أعني المجاز كما هو الحال في نماذج أخرى من التمييز، المجاز في فيض الأعين، والعلاقة هي الامتلاء وهي من أبلغ التراكيب القرآنية. «فالأصل ترى أعينهم تمتلئ من الدمع حتى تفيض، لأن الفيض على جوانب الإناء ناشئ عن امتلائه، ويحتمل أنه أسند الفيض إلى الأعين على سبيل المبالغة في البكاء لما كانت تفاض. فيها جعلت الفائضة بأنفسها على سبيل المجاز والمبالغة» (اندلسي، ١٤٢٠، ج٤: ٣٤٦). فقوله (من الدمع) أبلغ من يفيض دمعها، لأن المعنى: العين جُعلت كأن كلها دمع فائض فالتمييز في الآية يزيد المعنى مبالغة وكثرة؛ لأن الترقية فيه تترقى ثلاث مراتب، فالأولى فاض دمع عينه، والثانية في تحويل الفاعل تمييزا فاض عينه دمعا والثالثة في إبراز التمييز في صورة التعليل، فأفاد الى جانب التمييز التعليل، يقول الدرويش: «و إنما كان الكلام مع التعليل أبعد عن الأصل منه مع التمييز، لأن التمييز في مثله قد استقرّ كونه فاعلا في الأصل، في مثل: طاب محمد نفسا، واشتعل الرأس شيبا، فإذا قلت: فاضت عينه دمعا، فهم هذا الأصل مع العادة في أمثاله، وأما التعليل فلم يعهد فيه ذلك» (الدرويش، ١٤١٥، ج٣: ٦). ويوازن الزمخشري بين (دمعت) و(تفيض) الواردة في الآية، فيقول: «معناه تمتلئ من الدمع حتى تفيض، لأن الفيض أن يمتلئ الإناء أو غيره حتى يطلع ما فيه من جوانبه، فوضع الفيض الذي هو الامتلاء موضع الامتلاء، وهو إقامة المسبب مقام السبب، أو قصدت المبالغة في وصفهم بالبكاء، فجعلت أعينهم كأنها تفيض بنفسها أي تسيل من الدمع من أجل البكاء، من قولك: دَمَعَتْ عينه دمعاً» (الزمخشري، ١٤٠٧، ج١: ٦٧٠). فالزمخشري يردنا إلى الأصل اللغوي للفظة مما يجعلنا نتأمل في إسهام هذه المفردة في التصوير والاستعارة، فنجد هنا إيثار (تفيض) التي تتصل بالمياه الغزيرة المتدفقة، وكأن جفونهم ينابيع تفيض بالدمع الذي هو دلائل على عمق الإيمان، فالكثرة معبرة عن المضمون، كما أن الفيض يعبر عن استمرار أكثر مما يعبر الامتلاء ،فالفيض امتلاء بعد امتلاء. وهذا يدعونا الى القول بأنهم قوم عرفوا الحق واستيقنوه، وارتاحت لهم أنفسهم، وخشعت لهم قلوبهم وأسماعهم، وغلبة على أعينهم شدة البكاء، والحق ما تبكي له العيون وتطمئن له النفوس، وترتاح له الأبدان.

شواهد من التمييز المنقول في نهج البلاغة

في النهاية يبدو ضروريا أن نقوم بتيين ظاهرة النقل في التمييز مستشهدا بنماذج تطبيقية في النص العلوي ثم نحاول الكشف للعلاقة بين هذه الظاهرة وإبراز السمات الفنية الناتجة

Archive of SID

www.SID.ir

عن هذا العدول والاخراج الجمالي في نهج البلاغة؛ البحر الزخّار الذي لا حدود لامتداد أمواجه ولا قدرة على إحصاء كنوزه وهو من الدقة والسعة بشكل لا يمكن الوقوف على جميع مواضعه.

النموذج الأول لنقل التمييز من الفاعل هو كلام أمير المؤمنين علي عليه السلام في الخطبة الثانية والخمسين وهي في التزهيد في الدنيا:

١. «تَاللّهِ لَو انْماثتْ قُلوبُكُمُ انْمياثاً وسالتْ عُيُونُكُمْ منْ رغْبةٍ إليْه ورهْبةٍ منْهُ دماً، ثُمّ عُمّرْتُمْ في الدُّنْيا، ما الدُّنْيا باقيةٌ مَا جَزَتْ أعْمَالُكُمْ عَنْكُمْ ولَوْ لَمْ تُبْقُوا شَيْئًا مِنْ جُهْدِكُمْ أنْعُمَهُ عَلَيْكُمُ الْعِظَامَ وهُدَاهُ إيَّاكُمْ لِلْإيمَانِ» (نهج البلاغة: خطبة ٥٢). انتصاب «دما» على التمييز وهو منقول من الفاعل والأصل: «سال دم عيونكم». هذه الخطبة من مواعظه الجليلة والحافلة بالدعوة إلى الإسراع إلى طاعة الله وتقوى الله تعالى والتزوّد من أعمال الخير ونرى في هذه الكلمات من صنوف الوعظ والإرشاد ما لا نجده في كلام أي واعظ. يبدأ الإمام عليه السلام حديثه بأحوال الدنيا وتغيّرها وتبدّلها وسرعة إنقضائها وإدبارها ثم يأتي بالحديث عن التخويف والترهيب والتزهيد في الدنيا وثواب الله للزهد. إن مراده عليه السّلام من هذا العبارة أنّ كلّ ما أتيتم به من الأعمال التي بذلتم جهدكم فيها في طاعة اللّه فهو قاصر عن مجازاة نعمه العظام ولا سيما نعمة الهداية التي هي أشرف الآلاء وأفضل النّعماء. فالمبالغة التي تضاف إلى معنى العبارة الشريفة، لا تحصل دون نقل التمييز؛ ففي النص العلوي مبالغة من وجهين؛ الأول استعمال «الدم» بدلا من «الدمع» والثاني نقل الفاعل أعني «الدم» من إستعماله إلى إستعمال آخر وهو التمييز وجعل «العيون» في موضع الفاعل والمقصود من هذا النقل بيان نهاية عجز الانسان من أداء حق الله تعالى. هذا المعنى يحصل أيضا من نسبة الفعل أعني «سالت» بالعيون نفسها لا بالدم الذي هو فاعل حقيقي. فهذا قد إزداد العبارة الشريفة مبالغة وتأكيداً فصار المجاز مجالاً رحباً للكشف عن خصوصية النص الأدبي في العدول عن المعنى الأصلي إلى معنى جديد يدرك من خلال السياق الذي يرد فيه ولا يكون هذا إلا إذا ضاقت به الحقيقة في التعبير عن المعنى. والشاهد الآخر هو كلامه عليه السلام وقد ورد في صفة الأنبياء عليهم السلام على لسانه:

٢. «وَلَكِنَّ اَللَّهَ سُبْحَانَهُ جَعَلَ رُسُلَهُ أُولِي قُوَّةٍ فِي عَزَائِمِهِمْ وضَعَفَةً فِيمَا تَرَى اَلْأَعْيُنُ مِنْ حَالاَتِهِمْ مَعَ قَنَاعَةٍ تَمْلَأُ اَلْقُلُوبَ وَاَلْعُيُونَ غِنًى وخَصَاصَةٍ تَمْلَأُ اَلْأَبْصَارَ وَاَلْأَسْمَاعَ أَذىً» (نهج

Archive of SID

www.SID.ir

البلاغة: خطبة ١٩٤). لفظ «القلوب» وأيضا لفظ «الابصار» مفعولبه و«غنى» و«أذى» تمييزان مبينان للابهام الموجود في الجملة أعني «تملأ القلوب والعيون» و«تملأ الابصار والاسماع» والأصل: «تملأ غنى القلوب والعيون» و«تملأ أذى الابصار والاسماع». فحول المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه وجيء بالمضاف تمييزاً. نقل التمييز في الخطبة الشريفة نموذجا من نقل المفعول فهذا أيضا يدلّ على كثرة قناعتهم وخصاصتهم فعبّر عن المفعوليّة إلى التمييز قضاء لحقّ المقام من المبالغة والتكثير. فالقوة التي أعطاها الله عز وجل لأنبيائه ورسله كامنة في أنفسهم وأرواحهم،كان الأنبياء يعيشون في منتهى البساطة، ولكنها بساطة تذهل المتكبرين والمتجبرين. إن الأنبياء كانوا يحيون حياة بسيطة وفي تلك البساطة كانت سيادتهم الإلهية، لقد كانوا يملأون العيون لا بالجلال الزائل والمظاهر الخلابة، بل بالجلال المعنوي. هذا النموذج يعادل ما جاء في الخطبة الشريفة:

٣. «قَاتلكمُ اللّهُ لَقَد مَلأتُم قَلبي قَيحاً وشَحَنتُم صَدري غَيظاً» (نهجالبلاغة، خطبة ٢٧) هذه من مشاهير خطبه عليه السلام فهو يخاطب الكوفيين قائلا: لقد ملأتم قلبي لسوء أعمالكم سديدا وشحنتم صدري بقبح فعالكم غضبا وجرعتموني نغب التّهمام وجرع الهموم جرعة بعد جرعة وأفسدتم علىّ رأيي بالعصيان والخذلان. «قيحا» و«غيظا» كلاهما تمييز نقل من المفعول والأصل: «لقد ملأتم قيحَ قلبي وشحنتم غيظَ صدري». فهنا حول المضاف أو المفعول وأقيم المضاف إليه مقامه وجيء بالمضاف تمييزاً. يمكن القول بأن في تحويل المفعول عن رتبته إلى التمييز وتأخيره ثم تقديم المضاف إلى رتبة المفعول ما يوحي بإعلاء شأن المضاف إليه لارتفاعه إلى رتبة المفعول وبيان أهمية هذا الكلمة في الخطاب العلوي. وأيضا قد حصل بذلك معنى الشمول والاتساع وذلك نحو: «فاحت الحديقة عطرا» والأصل: «فاح عطر الحديقة» إن بينهما فرقا في المعني؛ فالجملة الثانية بمعنى أن عطرا في الحديقة فاح وأما الجملة الأولى فمعناه أن الحديقة امتلأت عطرا. فهنا يخاطب الامام عليه السلام الكوفيين غاضبا منهم محتقرا شأنهم لسوء أعمالهم فهو عليه السلام يستفيد التمييز لإفادة هذا الغضب وشدة قبح أعمال هؤلاء وشدة إيذانهم الإمام عليه السلام حيث القلب جُعل كأن كله قيح والصدر كله غيظ فالتعبير بـ«ملأتم قلبي قيحا» أفصح وأدل على المقصود بالنسبة إلي: «ملأتم قيح قلبي» ففي هذا التركيب انزياح كما هو الحال في جميع الأمثلة وافادة الشمول والاتساع هو ثمرة هذا الانزياح الذي يسبب جزالة في المعنى وبلاغة في إيصاله.

Archive of SID

www.SID.ir

كما قيل، من الافعال التي يستعمل معه التمييز، فعل «زاد» وما اشتق منه هنا نواجه بنموذج آخر من نقل التمييز مع فعل «إزداد» في كلام يعسوب الدين علي عليه السلام الذي يقول:

٤. «وَلَيسَ فِي أطباقِ السَّماءِ مَوضعُ إهاب إلا وعلَيه مَلَك سَاجدٌ أو سَاعٍ حَافد، يزدادُونَ عَلى طُولِ الطَّاعةِ بِربهم عِلماً» (نهج البلاغة: خطبة ٩١). أو في قوله عليه السلام للخوارج: «فَلَقَدْ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اَللَّهِ ص وإِنَّ اَلْقَتْلَ لَيَدُورُ عَلَى اَلْآبَاءِ واَلْأَبْنَاءِ واَلْإِخْوَانِ واَلْقَرَابَاتِ فَمَا نَزْدَادُ عَلَى كُلِّ مُصِيبَةٍ وشِدَّةٍ إِلاَّ إِيمَاناً» (نهج البلاغة: خطبة ١٢٢). انتصاب «علما» و«ايمانا» على التمييز في كلتا العبارتين وهما منقولان من الفاعل أي: «يزداد علمهم على طول الطاعة بربهم» و«يزداد إيماننا على كل مصيبة وشدة». فالتحويل من الفاعل إلى التمييز وإسناد الفعل إلى الملائكة أو أصحاب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يعتبر إسنادا مجازيا لإفادة الشمول والمبالغة وهو بمعنى أن ذات الملائكة المقربين الحافين حول العرش كلّها علم، والعلم شمل وجودهم بأجمعه. وكلامه عليه السلام مع الخوارج يجري مجرى الثناء على حُسنِ بلاء الأنصار في المعركة فيقول إن الصبر والتسليم من شيم المجاهدين ومن لباس المؤمنين المتقين الذين باعوا أنفسهم لله تعالى واشتروا بثمنها الجنة التي وعد الله عباده المؤمنين الصابرين وإن القتل والاعتقال لم يزدهم الا ايمانا واصرارا على المضي في طريق الجهاد والشهادة. فكما مرّ بنا، تحويل الفاعل إلى التمييز إشارة إلى الشمول فكأنما الايمان أصّل في وجود صحب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم المنتجبين واختلط بأرواحهم وأجسامهم كل الاختلاط. فنظراً إلى العبارات المذكورة، المبالغة والشمولية ثمرة نقل التمييز في كل هذه التعابير وهذه المبالغة والشمول، في كل تعبير تشمل صفة أو صفات خاصة وفقا للموضوع. معتمداً على ما قيل يوضح الغرض البلاغي من نقل التمييز في الخطبة الشريفة المسماة بالقاصعة:

٥. «تَأَمَّلُوا أَمْرَهُمْ فِي حَالِ تَشَتُّتِهِمْ وتَفَرُّقِهِمْ لَيَالِيَ كَانَتِ اَلْأَكَاسِرَةُ واَلْقَيَاصِرَةُ أَرْبَاباً لَهُمْ يَحْتَازُونَهُمْ عَنْ رِيفِ اَلْآفَاقِ وبَحْرِ اَلْعِرَاقِ وخُضْرَةِ اَلدُّنْيَا إِلَى مَنَابِتِ اَلشِّيحِ ومَهَافِي اَلرِّيحِ ونَكَدِ اَلْمَعَاشِ فَتَرَكُوهُمْ عَالَةً مَسَاكِينَ إِخْوَانَ دَبَرٍ ووَبَرٍ أَذَلَّ اَلْأُمَمِ دَاراً وأَجْدَبَهُمْ قَرَاراً». ما يريد الإمام علي عليه السلام بيانه في هذا المجال، تشابه الأمم في أحوالهم وأيضا العبرة والدرس من أحوال الأمم الماضية فيقول انظروا في اخبار من قبلكم من الأمم وقارنوا بين أوضاعهم وأوضاعكم لتعرفوا أنّ حالكم الآن هو مثل حالهم سابقاً، فتأملوا كيف كانت حالهم في العز والملك لما كانت كلمتهم واحدة، وإلى ماذا آلت حالهم حين اختلفت كلمتهم فعاشوا عيش

Archive of SID

www.SID.ir

الفقراء. فهم «أذل الأمم دارا» أي لا يستطيعون الدّفاع عن أنفسهم وعن ديارهم «و أجدبهم قرارا» أي ليس في مستقرهم رخاء، بل كانت أرضهم مجدبة غير مزروعة. فاحذروا أن تكونوا مثلهم، وأن يحل بكم إن اختلفتم مثل ما حل بهم. نصب «دارا» و«قرارا» على التمييز وهما منقولان من الفاعل فأسند إليهم مبالغةً وتأكيداً. ففي النص العلوي أيضا مجاز مرسل بالعلاقة المكانية فقد ذكر المكان وأراد أهله وهذا يدل على ذلتهم وحقارة شأنهم فكنى عن ذلتهم بذلة مكانهم وديارهم لأنه أبلغ في المعني؛ إذ أسند «أذل» أو «أجدب» إلى ضمير «هم» الراجع إلى بني إسرائيل وبني إسحاق كلهم ثم خصص «دار» أو «قرار» بالذكر فالعبارة تتضمن الإسنادين.

٦. «طِيبُوا عَنْ أَنْفُسِكُمْ نَفْساً وامْشُوا إِلَى الْمَوْتِ مَشْيا سُجُحاً» (نهج البلاغة، خطبة ٦٦). «نفسا» تمييز وهو محول عن المفعول والأصل: «أطيبوا أنفسكم» لكن هناك الفرق بين الجملتين. يقول السامرايي«هناك فرق بين «طاب نفس محمد» و«طاب محمد نفسا» ففي الأول أسند الطيب إلى النفس مباشرة وفي الثاني أسند إلى محمد كله ثم خصص النفس بالذكر فقد مدح مرتين» (السامرائي، ١٤٢٠، ج٢: ٣٣٠). ذهب الزمخشري إلى «أن هَذه التَّمييزاتُ مُزالةٌ عَن أصلِها، إذ الأصلُ وَصفُ النَّفسِ بِالطّيبِ، لأن الفعلَ في الحَقِيقةِ وَصفٌ في الفَاعلِ. والسَّببُ في هَذِه الإزالةِ قَصدُهم إلى ضَربٍ مِنَ المبالَغَةِ والتَّأكيد» (الزمخشري، ٢٠٠٦: ٢٣). معنى المبالغة أن الفعل كان مسنداً إلى جزء من الفاعل فصار مسنداً إلى الجميع وهو أبلغ في المعنى والتأكيد أنه لما كان يفهم منه الاسناد إلى ما هو منتصب به ثم أسند في اللفظ إلى الفعل تمكن المعنى ثم لما احتمل أشياء كثيرة تبين المراد من ذلك بالنكرة التي هي مفعول في المعنى فهذا معنى قوله: والسبب في هذه الإزالة قصدهم إلى ضرب من المبالغة والتأكيد. هذا يوضح لنا أهمية الموضوع للإمام عليه السلام وتأكيده عليه السلام على هذا الأمر فالتمييز المنقول، يفيد هذا التأكيد ويوصل غرض الامام عليه السلام بواسطة ما فيه من التنوع في الأسلوب أي بواسطة الانزياح. ففي الايضاح بعد الابهام أو العمد إلى بيان الابهام وإيضاحه بمجئ التمييز ما يكثف المعنى ويرفع من درجة الإحساس به على الرغم من عدم استخدام ألفاظ إضافية في التركيب وهو يحسب في باب الاقتصاد اللغوي من ميزات العربية.

فنجد المزية الفنية للمجاز في البناء الأسلوبي لما يتيحه من إمكانية الإخراج الجمالي للعبارة ولما يحمله من دلالة مضاعفة. فبذلك يتضح لنا علاقة البنية المركبة بالدلالة في

Archive of SID

www.SID.ir

العربية، وكيف تتأثر هذه البنية بالمعنى الذي يرمي إليه المتحدث والمعنى الذي لا يفيده بيان الجملة خاليا من التمييز وتبدو الجملة عاجزة عن إفادتها. وهكذا «فالوظيفة النحوية تتحكم في إظهار الصورة الدلالية، ونجد أنّ دلالة التركيب تُعبر عن المعنى بصورة شاملة، فالتركيب يختلف في التعبير عن المعنى من تركيب لآخر، ولكنه لن يشيع ما يشيعه الآخر من ظلال وإيحاء» (محجوب، ١٩٧٦: ١٧). ففي ضوء الانزياحين أعني النحوي والدلالي، تحقق قمة الأداء اللغوي ويبلغ النص الأدبي دقةً دلالية ويؤدي أسرارا بيانية ومعنى ثانياً بليغاً واسعاً لا يؤديه التركيب المألوف من الناحية الدلالية والنحوية.

النتائج

نحن في دراستنا هذه تناولنا التمييز المحول على المستويين: النحوي والدلالي استناداً بالنماذج القرآنية والعبارات العلوية التي تعد من أهم مظاهر نقل التمييز وأجملها. يتضح لنا من خلال ما بيناه نتائج مختلفة منها:

١. إن البحوث الدلالي حول التراكيب النحوية لم تنل حقها من الاهتمام؛ إن النحاة قد استوفوا المسائل كلّها في باب التمييز ولكن دراستهم تتعلق بالعلاقات الظاهرة بين الكلمات، أما المعنى فهو بعيد عن تناولهم. من الواضح أنّ المعاني النحوية تتأثر بالسياق اللفظي والعلاقة بين النحو والدلالة، علاقة وطيدة ومتماسكة؛ يرتبط المعنى الدلالي بنوع البنية الشكلية وكل بنية شكلية تستهدف المعنى ووراء كل تعبير معنى خفي.

٢. وفقاً على ما قيل حول مفهوم الانزياح التركيبي، نقل التمييز كظاهرة أسلوبية يعد نموذجاً من الانزياح التركيبي الذي تجسد في علم المعاني؛ إذ أن للغة العربية بنية نحوية عامة ومطردة كما هو الحال في كل اللغات؛ ففي اللغة العربية مثلا الفاعل يكون تالياً لفعله وسابقا مفعوله. فقد اعتاد القارئ على هذا النمط البياني الثابت فنقل كل من العناصر المذكورة من مكانها إلى التمييز يعطي المخاطب أبعادا لغوية غير تلك التي ألفها الناس وهذا النقل والتحويل يقارن الجملة معنى الاتساع والشمول والمبالغة وهذا ما تؤيده الشواهد القرآنية وما يؤكد عليه المفسرون واللغويون.

٣. يمكن القول بأن ظاهرة نقل التمييز، تعتبر نوعا من الانزياح الدلالي لما فيها من المجاز العقلي أو اللغوي. فالأصل هو الحقيقة لأن الحقيقة من البعد اللغوي تعني

Archive of SID

www.SID.ir

معنى الثبات فمقابل ذلك يأتي الحديث عن تجاوز المألوف أو المجاز. فالمجاز يعد أساس الانزياح. فنظراً إلى هذا ترد ظاهرة النقل في حقل العدول الدلالي. مثلا إسناد الفعل الى غير فاعله الحقيقي وبيان: «ازدادوا علما» تركيب لا يتفق والنظام النحوي ولهذا يندرج تحت مفهوم الانزياح التركيبي ومن ناحية أخرى نجد هذا التركيب غير مألوف من الناحية الدلالية لما فيه من إسناد مجازي. فهذا التركيب المعدول نحوياً ودلالياً أدى معنى ثانياً بليغاً واسعاً لا يؤديه التركيب المألوف من ناحية الدلالية والنحوية. فهو يدل على الكثرة والشمول والمبالغة. فالتحويل من الفاعل إلى التمييز وإسناد الفعل إلى الضمير يعتبر إسنادا مجازيا لإفادة الشمول والمبالغة وهو بمعنى أن ذات هؤلاء كلّها علم، والعلم شمل وجودهم بأجمعه.

٤. يجب القول بأن للنظم القرآني، اسلوباً خاصاً في التعبير عن المواقف والاستفادة من تقنيات التعبير في اللغة العربية فهو الاعجاز اللغوي الذي فتنت العقول والأذهان. إنّ العدول في النصّ القرآني في أعلى درجاته الإبداعية البلاغية و–في الأعم الغالب– هو خروج عن قواعد النحو وأقيسة النحاة (العقلية)، وليس خروجاً عن نظام العربية المتماسك. كما هو الحال في معجزة الامام علي عليه السلام البيانية وهذا يظهر مدى اتّصاله بالوحي وبحار المعارف الإلهيّة. فكلام علي عليه السلام من حيث البلاغة والفصاحة في أعلى مستوى من الروعة وهو ينبوعٌ متدفقٌ جيّاش، يزداد تدفّقاً ولَمعاناً وإشراقاً يوماً بعد يوم بحيث لا يضاهيه كلام غيره قط. كيف لا وعلي عليه السلام أمير البيان ومشرع الفصاحة والبلاغة؟

Archive of SID

www.SID.ir

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

نهج البلاغة

١. آلوسي، سيد محمود (١٤١٥ق). روح المعاني في تفسير القرآن العظيم. تحقيق علي عبد الباري عطية. بيروت: دار الكتب العلمية.

٢. ابن عاشور، محمد الطاهر (دون تا). التحرير والتنوير. تونس: الدار التونسية للنشر.

٣. ابن منظور، محمد بن مكرم (١٤١٤ق). لسان العرب. بيروت: دارالفكر.

٤. ابن يعيش (دون تا). شرح المفصل. ج١، ادارة الطباعة المنيرية.

٥. الأزهري، خالدبن عبدالله (١٤٢١ق). التصريح على التوضيح. ج١، بيروت: دار الكتب العلمية.

٦. الاسترآبادي، محمد بن الحسن (دون تا). شرح الكافية في النحو. ج١، طهران: المكتبة المرتضوية لإحياء الآثار الجعفرية.

٧. بن زيان، عبد القادر (٢٠١٢م). جمالية الانزياح في القرآن الكريم. رسالة الماجستير في كلية الآداب واللغات بجامعة أبي بكر بلقايد -تلمسان.

٨. الجرجاني، عبدالقاهر (٢٠٠٤م). دلائل الاعجاز. القاهرة: مكتبة الخانجي.

٩. الجرجاني، عبدالقاهر (١٩٩١م). أسرار البلاغة. تعليق: محمود محمد شاكر. القاهرة: مكتبة الخانجي.

١٠. حسن عباس (دون تا). النحو الوافي. ج٢. مصر: دار المعارف.

١١. خطيب قزويني (١٣٩١هـ). شرح المختصر. ط٧. قم: منشورات اسماعيليان.

١٢. درويش، محيي الدين (١٤١٥ق). إعراب القرآن وبيانه. ج١ و٢ و٣ و٥ و٦ و١٠، ط٤، دمشق: دار الارشاد.

١٣. راضي، عبد الحكيم (١٩٨٠م). نظرية اللغة في النقد الأدبي. القاهرة: مكتبة الخانجي.

١٤. راغب اصفهاني، حسين بن محمد (١٤١٢ق). المفردات في غريب القرآن. تحقيق صفوان عدنان داودي. بيروت: دار العلم.

١٥. رمضان النجار، نادية (٢٠٠٧م). الدلالة الصوتية والصرفية في سورة يوسف عليه السلام في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة ومناهجها. نشر بكتاب المؤتمر العلمي التاسع لكلية دار العلوم عنوان الكتاب: الابداع والحرية في الثقافة العربية الإسلامية.

Archive of SID

www.SID.ir

١٦. الزمخشري، محمود (٢٠٠٦م). المفصل في صنعة الاعراب. تحقيق: علي بو ملحم. بيروت: مكتبة الهلال.

١٧. الزمخشري، محمود (١٤٠٧ق). الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل. ج١ و٢ و٣ و٤، ط٣، بيروت: دار الكتاب العربي.

١٨. السامرايي، فاضل صالح (١٤٢٠ق). معاني النحو. المجلد الثاني. عمان: دار الفكر.

١٩. السبعاوي، حازم ذنون إسماعيل (٢٠٠٤م). التمييز في القرآن الكريم دراسة نحوية دلالية. رسالة الماجستير في كلية التربية بجامعة الموصل.

٢٠. سيد بن قطب (١٤١٢ق). في ظلال القرآن. ج٦، ط١٧، بيروت: دار الشروق.

٢١. سيد رضي، ابو الحسن محمد (دون تا). تلخيص البيان عن مجازات القرآن.

٢٢. سيوطي، جلال الدين (١٤١٨ق). همع الهوامع في شرح جمع الجوامع. ج٢، بيروت: دار الكتب العلمية.

٢٣. الصبّان (١٣٠٥ق). حاشية الصبّان على شرح الأشموني على ألفية إبن مالك. ج٢، مصر: المطبعة الخيرية.

٢٤. طريحي، فخر الدين (١٣٧٥هـ). مجمع البحرين. ط٣. طهران: مكتبة مصطفوي.

٢٥. عبد المطلب، محمد (١٩٩٣م). البلاغة والأسلوبية. مصر: مكتبة لبنان الشركة المصرية العالمية للنشر.

٢٦. عبدالمعطي، محمد حاتم (٢٠١٢م). التراكيب النحوية من الوجهة البلاغية في القرآن الكريم. رسالة الماجستير، كلية الآداب، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة الإسلامية، غزة.

٢٧. عضيمة، محمد عبد الخالق (١٣٩٢ق). دراسات لأسلوب القرآن الكريم. ج٣، القاهرة: دار الحديث.

٢٨. الفراهيدي، الخليل بن أحمد (١٤٠٥ق). الجمل في النحو. بيروت: مؤسسة الرسالة.

٢٩. فيض كاشاني، ملا محسن (١٤١٨ق). الأصفى في تفسير القرآن. تحقيق محمد حسين درايتي؛ محمد رضا نعمتي. ج٢، قم: مركز انتشارات مكتب التبليغات الإسلامية.

٣٠. گنابادي، سلطان محمد(١٤٠٧ق). تفسير بيان السعادة في مقامات العبادة. ط٢، بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.

٣١. مراح، عبدالحفيظ (٢٠٠٦م). ظاهرة العدول في البلاغة العربية (مقارنة أسلوبية). رسالة الماجستير، كلية الآداب واللغات، قسم اللغة العربية وآدابها، بجامعة الجزائر.

٣٢. محجوب، فاطمة (١٩٧٦م). علم اللغة ودراسة الأدب. مجلة الثقافة، العدد الثاني.

Archive of SID

www.SID.ir

٣٣. مولينيه، جورج (١٤٢٠ق). الأسلوبية. ترجمة بسام بركة، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر.

٣٤. ويس، أحمد محمد (٢٠٠٢م). الانزياح في التراث النقدي والبلاغي، دمشق: اتحاد الكتاب العرب.

٣٥. شبكة النبأ المعلوماتية، www.annabaa.org الاثنين ٢٢/شباط/٢٠١٠ = ٧/ربيع الأول/١٤٣١ق، بقلم حسن منديل العكيلي، قسم اللغة العربية، كلية التربية للبنات بجامعة بغداد.

Archive of SID

www.SID.ir